أوهام الإصلاح السياسي في مسرح أريستوفانيس

ابراهيم السايح

على الرغم من الحرص الشديد للشاعر المسرحي أريستوفانيس على تكريس أعماله لنقد شتى جوانب المجتمع، و بالرغم من الجرأة الشديدة التي عالج بها قضاياه ، و برغم اخلاصه الواضح في طرح أفكاره و توجهاته و أفكاره السياسية و الإجتماعية و الفكرية ، فإنه في نهاية الأمر يبدو كصوت رجعي في مجتمع يلهث وراء التقدم و التجديد .

ففي ظل ظروف المجتمع الأثيني في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م (١)،و بينما يعلن النظام الديمقراطي الوليد عن حاجته الشديدة لكل الجهود المخلصة في سبيل توطيد دعائمه وإرساء قواعد العدل الاجتماعي و السياسي ، نجد أن التكوين الفكري المحافظ لأريستوفانيس (٢) يجبره على إظهار عدائه للنظام و الوقوف أمام محاولات التغيير بكل ما أوتي من قدرة على السخرية و التهكم و التعريض . و لو تجولنا بين سطور أعمال أريستوفانيس المسرحية فاننا نلمس بوضوح أن الشاعر كان يدير معركة ضارية ضد كل مظاهر التجديد و التغيير فيالمجتمع الأثيني ، و لعل أولى المحاولات التي بذلها أريستوفانيس في هذا الصدد هي الصورة التي منحها لبطله < ديكايوبوليس > أو المدينة العادلة في مسرحية < الأخارنيون > (٣) ، ذلك الرجل الذي يصوره أريستوفانيس و قد فاض به الكيل من جراء خسائر الحرب ، فترك بلدته و حقله ووقف أمام الجمعية الشعبية يطالب بالتصريح له بعقد صلح منفرد مع الاسبرطيين . و بعيدا عن السخرية و المبالغات التي يلجأ اليها الشاعر في المسرحية كضرورة من ضرورات الكتابة للمسرح الكوميدي، فاننا حين ننظر للظروف التاريخية التي واكبت هذا العرض المسرحي ، لن نرى في الجانب الاسبرطي سوى مدينة ذات تكوين عنصري وعسكريصارم ،

---

(1) Bergeston , Hermann ; tr. by Edmund f. Bleodow , History of Greece , from the beginnigs to the Byzantaine era , Ottawa , 1969 , 120 ff .

(2) Aristophane , Texte Etable , par Victor Coulon , Paris , 1932 , p.pIII, tom I .

(3) Acharnians , 130-133 ; 292-293 ; 563-564 .

شديدة الحرص على الانغلاق على نفسها بنظامها السياسى الطبقى ، و شديدة الطموح للسيطرة العسكرية ، و هى لا ترقى بحال من الأحوال لمرتبة أثينا الفكرية و الحضارية و لا تملك الطموح أو الرغبة فى أن ترقى إليها .(٤) هذا من ناحية ، و من الناحية الأخرى فإن الروح الجماعية التى كان النظام الديمقراطى حرياً بأن يزرعها فى المجتمع الأثينى لم تكن تتسق مع مايصوره أريستوفانيس فى هذه المسرحية ، فمهما كانت ضراوة الحرب و مهما بلغ حجم خسائرها فان شيئا من ذلك لا يبرر خروج أحد المواطنين عن إجماع مدينته و رغبته فى عقد صلح منفرد مع الاسبرطيين ،ثم يصفه أريستوفانيس بعد ذلك بإنه المدينة العادلة أو أنه رمز لها، فلا الاسبرطيون وحلفاؤهم كانوا أشد حرصا من أثينا على وحدة و سلام بلاد اليونان ، و لا ذلك الصلح الذى يطالب به أريستوفانيس كان يمثل الحل النهائى و الصحيح لمشاكل العداء و الانقسام بين هذه الدويلات .(٥) .

القضية إذن لم تكن قضية الحرب و السلام ، و لم تكن أيضا قضية الوحدة المفترض وجودها بين المدن و الدويلات اليونانية ، ذلك أننا حين نواصل جولتنا بين سطور الأعمال المسرحية التى تركها أريستوفانيس فسوف نجد معاول الهدم أكثر كثيرا من محاولات البناء . ويبدأ الشاعر رحلة الهدم هذه فى أعقاب مسرحية < الأخارنيون > حيث يهاجم فى مسرحيته التالية (٦) حكام و ساسة مدينة أثينا و يتهمهم بالأنانية و الديماجوجية و الخداع ، و الانتقاد الذى يسوقه أريستوفانيس فى هذا المجال لا ينبغى وضعه فى أطار الهجوم على أشخاص الحكم فحسب ، و لكنه يمثل فى واقع الأمر هجوما على النظام السياسى القائم فى ذلك الوقت،وهو النظام المسئول عن إفراز هذه النوعية من الحكام،وحين يتهم أريستوفانيس ساسة بلاده بأنهم مخادعون وأفاقون (٧) فإن هذا الاتهام يمتد ليشمل مواطنى المدينة،فهم بالضرورة مسئولون

---

(4) Forrest w. G ., A History of Sparta , 104-105 , London , 1980 .
(5) Dover , K.J ., Aristophanic Comedy , 1972 , p 84 ff .
(6) (Les Cavalier) ΙΠΠΗΣ , 235 ff / 624 ff . ΣΦΗΚΕΣ , 136 ff .

(٧) يصور أريستوفانيس الشعب فى مسرحية الفرسان فى صورة الشخص الكسول الذى يسهل اقتياده إلى أى شىء و هو بهذا التصوير يضرب الديمقراطية فى مقتل ، فشعب بهذه المواصفات لا يمكن تسليم قيادة البلاد إليه و إلا انتهى الأمر معه بكارثة ، و هو الهدف الذى يرغب الشاعر فى التوصل إليه .

Cf. Dover,Op.Cit ., 95 ff .-- Bury ,Op.Cit., p.435ff . -- Arnott.,Op.Cit.,134.

فى ظل النظام الشعبى الديمقراطى عن اختيار حكامهم ، و مسئولون عن استمرارهم فى الحكم ، و مسئولون أيضا عن البرامج و التوجهات السياسية التى يعمل من خلالها هؤلاء الحكام . الهجوم الذى يشنه أريستوفانيس إذن على كليون لا يمكن أن نفسره فى إطار مثالب كليون فحسب ، و لكنه يمثل غضبة ضارية من معسكر المحافظين ضد التجربة و الممارسة الديمقراطية الشعبية القائمة فى اثينا آنذاك .

و يمضى أريستوفانيس من خلال أعماله المسرحية فى مناصبة العداء لكل تجديد أو تطور فى المجتمع الأثينى ، فإلى جانب هجومه على النظام السياسى و رموزه و توجهاته ، فإنه أيضا يعلن نفسه عدوا لدودا للحركة الفلسفية و الفكرية التى كانت بلاده تشهدها فى القرن الخامس ق.م . و ها هو الشاعر المسرحى الذى كان يتهم الحكام بالديماجوجية و الخداع ، ها هو يمارس نفس المهمة التى انتهى لتوه من انتقادها . فأريستوفانيس حين انتقد سقراط(٨) ووضعه ضمن السوفسطائيين ، و اتهمه بإفساد الشباب و إفساد الحياة الفكرية وقيم المجتمع، لم يكن فى واقع الأمر أفضل حالا من هؤلاء الساسة الذين اتهمهم بخداع العامة و استغلال ضحالة وعيهم . فسقراط الذى هاجمه أريستوفانيس كان يمثل أحد مظاهر التجديد فى المجتمع الأثينى (٩) ، و كان سعيه للوصول إلى حقائق الأشياء من خلال المحاورة أمراً جديداً أمام فكر المحافظين ، و لعل أريستوفانيس فى هجومه هذا لم يكن مهموما بشباب مدينته قدر خشيته من انهيار إطار كامل من الموروثات و الثوابت فى فكر و عقيدة أبناء مدينته .

و تتضح الصورة أكثر مع هجوم أريستوفانيس على يوريبيديس (١٠) ، و تفضيل أيسخيلوس عليه على الرغم من إبراز مزايا و مواهب يوريبيديس التى تكفل له التفوق على كافة أقرانه و سابقيه،ففى حالة سقراط لم يسمح أريستوفانيس لنفسه بذكر أى ميزة أو خصلة طيبة يمكن وجودها لدى ذلك الفيلسوف،بينما نجده على خلاف ذلك فيما يتعلق بيوريبيديس،

---

(8) Νεφελαι , 238 ff.-- Νεφελαι , 6-247-368 - 814-599-1321 -1476 .
Cf : G .Murray, Aristophanes, a study, p.22 ff .; G.Norwood,Op..Cit.,p.216.
(9) Dover , Op.Cit ., p116 ff.

لعل ولاء سقراط للنظام الديمقراطى و خضوعه لنظام المدينة هو ما جعل أريستوفانيس يحنق عليه و يتهمه بصفات نزلة منها صورته التى نعرفها من خلال أفلاطون و اكسينوفون و المصادر الأخرى .

(10) Βατραχοι : 888 sqq -- 947sqq --971sqq -- 1049 sqq .

فهو يذكر له التمكن الفنى ، و يذكر له واقعية المعالجة ، و يذكر له تفـرد الأسلوب (١١) ، و يمعن فى تكريمه ضمنا حين يضعه طرفاً فى مقابل أيسخيلوس مع إغفال سوفوكليس بوصفـه ضمن مدرسة الأخير إن جاز هذا التعبـير . و هكـذا فعندمـا ينهـى أريسـتوفانيس مسـرحية الضفادع بترجيح كفة أيسخيلوس ، فإنه فى واقع الأمر ، و بصـرف النظـر عـن الحجـج التـى ساقها لتبرير ذلك ، إنما يعلن مرة أخرى أنتصاره للتيار المحافظ فى شتى المجالات ، و هـو أيضـا يسوق إلينا الحجة على أنه حين هاجم سياسة و ساسة بلاده لم يكن يسـعى لإصـلاح سياسـى يحمل أى قدر من التقدمية أو التطور ، و إنما على العكس من ذلك كان يتمنى لو أعيد تنظيـم الصفوف ، و عادت العامة و الغوغاء ، فى رأيه ، إلى مقاعد المشاهدين ، و فى المـرات القليلـة التى لجأ فيها أريسـتوفانيس إلى طـرح الحلـول ، لم تكـن هـذه الحلـول سـوى حلـولاً سـاخرة مستحيلة التنفيذ ، فهو حيناً يصور النساء و قد طرحـن أنفسـهن بديـلاً للرجـال ، و تصديـن لتحقيق الوحدة بين دويلات اليونان و إقرار السلام بين ربوعها (١٢) . و الأمر هنـا لا يعـدو كونه نوعاً من الطرح الفنتازى و تسطيحاً للأمور على نحو يفقد العمـل بأكملـه أيـة مضـامين جادة ، فالمرأة فى المجتمع الأثينى فى ذلك الوقت كانت تحتاج لمعجزة من نوعية هلاك الرجـال حتى تتمكن من تبوأ مكانة تقترب بها شبراً واحداً من تحقيق رؤية أريستوفانيس (١٣) . و لو قيل فى هذا الصدد أن الشاعر كان يقصد بمسرحيته هذه مجرد الاضحاك ، فإننا نسلبه بذلـك ، بـل و نسـلب فـن الكوميديـا اليونانيـة بأسـره ، أهـم و أسمـى مزايـاه ، و هـى التصـدى بالنقدوالتحليل لكل شئون المجتمع ، تلك الميزة التى أوصلته لأن يكون بمثابة الصحيفـة اليوميـة التى يطالع فيها القوم شئون الوطن (١٤) .

و لعل واحداً من أهم ما يؤخذ على الطرح السياسى لدى أريستوفانيس هـو لجـوءه الدائـم إلى تكريس الحل الفردى ، و خاصة فى مجال ما يسميه انقاذ الوطن أو السعى إلى السلام أو

---

(11) Βατραχοι , 77-78 -- 1048 .

(12) Λυσιστρατη , 1137 sqq .

(١٣)عن وضع المرأة فى المجتمع الأثينى،و استحالة اشراكها فى أى تغيير جذرى أو حتى ايجابى فى حدود دورها فى هذا الوقت ، أنظر

Powell , Anton : Athens and Sparta , constructing Greek Political and Social Histroy from 478 B.C .P 337 ff.Routledge 1988.

(14) Βατραχοι ,1008- 1009 - 1031- 1054 - 1417 - 1419 .

الوحدة،وهو ما نراه جليا فى حالة سلام<ديكايوبوليس>، وسعى<تريجايوس> إلى إنقاذ السلام وإعادته إلى المدينة ، و الإضراب الذى تدعو إليه < ليسستراتا > لإرغام الرجال-الغائبين أصلاً بسبب الحرب - على إقرار السلام و الوحدة فى ربوع البلاد،وحتى عندما يلجأ أريستوفانيس إلى تصوير الشعب الأثينى فى صورة شخص واحد - ديموس - (١٥) ، فإن طرحه فى هذه الحالة أيضاً يمكن أن نتصوره تكريساً للفردية ، فقد أراد من توحيد الشعب فى هذه الصورة أن يُحمِّل كل المثالب و الموبقات و يلبسه إياها ، و هو ما يسدى خدمة جليلة لهدفه الأساسى و هو النيل من النظام الشعبى الديمقراطى القائم فى البلاد آنذاك .

و ان كان أريستوفانيس قد قام بطرح معظم أفكاره و رؤاه السياسية ، و جاهر بالعداء للنظام الأثينى فى القرن الخامس ق.م ، و فى وقت كان النظام الديمقراطى فيه لم يفشل بعد ، فإن أعماله فى القرن الرابع ق.م ، و فى أعقاب السقوط الأثينى أمام التحالف الاسبرطى ، لم تبتعد كثيرا عن هذا السياق . ففى مسرحية < بلوتوس > يعاود أريستوفانيس اللجوء إلى النيل من سعى البلاد إلى تجاوز المحنة ، و بدلا من طرح بدائل سياسية و اقتصادية و اجتماعية تصلح من شأن المدينة و تقيلها من عثرتها،نجده فى هذه المسرحية يصور الثروة كشخص فاقد للبصر و البصيرة ، يغدق على من لا يستحق ، و يحرم الآخرين ، كما يذكر فى ذات السياق أن الأعمال التى تفتقر إلى الشرف و الصدق هى أقصر السبل للوصول إلى الثراء (١٦) . و مع التسليم بحالة الانهيار التى كان يعيشها المجتمع الأثينى فى هذه الفترة ، و ما يترتب عليها بالضرورة من الإحباط الذى لا بد و أن يصيب مشاعر الجميع ، فإننا بالقدر اليسير من المعرفة بما كان يطرحه الشاعر من أفكار فى فترة ما قبل السقوط يمكننا أن نضع آراءه هذه فى إطار العداء للنظام الديمقراطى و تبنى الأفكار الرجعية أو المحافظة التى أختار الانحياز إليها منذ

---

(15) Iπππs, 727 ff .

أريستوفانيس فى هذه المسرحية يصور الشعب الأثينى الذى أختار له صورة شخص واحد و أطلق عليه اسم " ديموس" حتى لا يترك مجالاً للتخمينات ووجهات النظر ؛ يصور هذا الشخص فى صورة من لا يملك القدرة على اتخاذ القرار ، و يترك نفسه لأهواء ورغبات الآخرين، و حين نعلم أن هؤلاء الآخرين من الشعب أيضا ، بحكم الديمقراطية ، فإن هذا التصوير يمثل مساساً للقضية التى يطرحها الشاعر ، و الأحرى أن تُترك الفرصة للشعب ليتعلم من أخطاء التطبيق حتى يصل إلى مرحلة القدرة على حكم نفسه بنفسه .

أنظر أيضا Σφι ,31 sqq

(16) πλ., 29-30 .

أعماله الأولى .

لم تكن أعمال أريستوفانيس إذن هى تلك الأعمال التى تحمل برنامجاً متكاملاً للاصلاح السياسى ، كما أن الشاعر لم يكن لديه أى قدر من الاستعداد لتقبل الأفكار التقدمية و النظام السياسى القائم على اشتراك الشعب فى الحكم ، و كان أريستوفانيس شديد الوضوح فى انحيازه للتيار المحافظ فى مدينته ، بداية من السلام الشخصى الذى يسعى إليه ديكابوبوليس ، و الهجوم المتواصل على كليون و قادة الديمقراطية ، و مرورا بهجوم غير مبرر تاريخياً على سقراط و يوربيديس ، و تعريضا بتجربة القضاة و المحاكم الشعبية (١٧) ، و سخرية مريرة من وضع الشعب الأثينى الذى قُدر له فى ظل الديمقراطيــة أن يكون رجل البيت ، و انتهاءً بطرح النساء بديلاً للرجال فى حكم البلاد ، و تصوير الثروة كأمر قدرى عشوائى يذهب لمن لا يستحق و لمن لا يملك الصدق أو الشرف .

ذلك هو الاصلاح السياسى الذى تبناه أريستوفانيس فى أعماله المسرحية ، و هو لا يعدو أن يكون فى واقع الأمر بجرد المطالبة بعودة البلاد عدة قرون إلى الخلف ، حيث طبقة تحكم وطبقات تعود إلى الصفوف الخلفية ، و مع كل الاحترام لمكانة أريستوفانيس و موهبته كرائد لفن المسرح الكوميدى فى بلاد اليونان ، فإن رؤيته هذه كانت تمثل فكرا طبقيا أثبتت تجارب التاريخ ، فى أثينا ذاتها ، فساده و تخلفه (١٨) ، و لعل هذا التوجه السياسى الذى أختاره أريستوفانيس لنفسه و اصطبغت به كافة أعماله المسرحية ، كان أحد المعاول التى أسهمت فى هدم النظام الديمقراطى فى أثينا ، إذا ما وضعنا فى الاعتبار الأهمية البالغة للعروض المسرحية فى ذلك الوقت و دورها الحيوى فى صنع وعى المواطنين فى ظل غياب الوسائل الاعلامية والتثقيفية الأخرى التى تحمل نفس القدر من الأهمية و التنظيم .

---

(17) πλ., 207-208 / 214-299 .

و هو يسخر فى هذه المسرحية من نظام القضاة الشعبيين أو المحلفين ، و يصفهم بأنهم قد صاروا مولعين بإصدار الأحكام القضائية حتى و لو كانوا خارج المحكمة ، و هو أمر لو أنطبق فرضا على آحادهم ، فإنه لا يمكن أن ينهض دليلاً على فساد النظام القضائى الشعبى بأكمله .

أنظر أيضا :

Norwood , Op.Cit., 24 ff .

(١٨) قبل التحول للديمقراطية ، مر المجتمع الأثينى بفترات حكم فيها الملوك ثم الارستقراطيون ثم تحالف ارستقراطى مع التجار فيما يسمى بحكم الأقلية ، ثم حكم الطغاة المطلق ، و فى كل هذه المراحل اتسم الحكم بالطبقية ، و أدى ذلك إلى فشل التجربة .